٢٣ ابن طباطبا وحكايته مع الرشيد

نحن الآن فى رحاب أحد الصالحين الذين عملوا فى دنياهم لآخرتهم. إنه واحد من نسل أحد الذين فروا من اضطهاد أبناء العمومة من ذوى النفوذ والسلطان، ومع ذلك كان من الذين لم يعرف الشك فى رحمة الله وفضله إلى قلوبهم سبيلا.. بل ظلوا على حالهم، يقابلون السيئة بالحسنة، ولا يطلبون من مخلوق على الأرض شيئاً ما دام رب الأرض والسماء يلبى دعوة المظلوم بغير حجاب.

هذا الرجل الصالح كما تقدمه المصادر قديمها وحديثها هو عبد الله بن أحمد ابن إبراهيم «طباطبا» بن إسماعيل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط رسول الله ﷺ.. وهكذا ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب، والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

فى هذا النسب الشريف قد يستوقفنا اسم «طباطبا» بين الأسماء، والغريب أن هذا الرجل الصالح قد اشتهر به، لدرجة أن الكتب حين تذكره تذكره بابن طباطبا، نسبة إلى جده إبراهيم الذى لصقت باسمه هذه الصفة ولهذه التسمية قصة يرويها ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» ومجمل هذه القصة أن هذا الجد إبراهيم سُمى كذلك لِدَتَّة كانت فى لسانه، تجعل نطق الكلمات لايكون واضحاً، حيث يتعثر ذلك عليه،إلى درجة أن بعض الحروف تتغير على لسانه بعد نطقها.

وحين قدم هذا الجد «إبراهيم» من المدينة إلى بغداد، وكان ذلك فى عصر بنى العباس، وبالتحديد أيام خلافة هارون الرشيد، وكان من الطبيعى أن يتكلم القوم حول انتقاله إلى بغداد، وتجادلوا، والسبب لأنه من العلويين، أولئك الذين كان

بنو العباس يحسبون لهم ألف حساب، على الرغم من أن الطرفين أبناء عمومة، خوفاً على سلطانهم الذى انتزعوه من أبناء على بن أبى طالب، شأنهم شأن الأمويين من قبلهم.

ولما سمع أمير المؤمنين هارون الرشيد بما يُقال حول هذا الرجل بعث إليه مَنْ يُحضره ليكون بين يديه، وفى الطريق حاول هذا الرجل الصالح أن يعرف من عامل الرشيد سبب هذا اللقاء، إلا أن هذا العامل المكلف بإحضاره ازداد صمتاً، وهنا تضاعفت ظنون هذا الرجل، إلى درجة أنه ظن بأن أحداً قد وشَىَ به عند أمير المؤمنين، ولم تنته وساوسه ومخاوفه، حتى أصبح بين يدى الرشيد، وهنا تحدث المفاجأة، حيث قام الرشيد وأجلسه إلى جواره وهو يقول: «ماجاءَ بك يا أبا إسحاق؟!». وبغير تفكير. حيث كانت الدهشه لا تزال تأخذ بكل أقطار نفسه ـ أجاب: «لقد رَوَّعَنى صاحب الطَّبَاَ» ولم يفهم الرشيد ما يقصد بكلمة «الطَّبا» فطلب منه أن يعيدها على مسامعه فأعادها ناطقاً إياها مرتين: «ظلمنى صاحب الطَّباطَبا».. وهنا تطوع أحد الحاضرين بالتوضيح، موجهاً كلامه إلى الرشيد: إنه يقصد صاحب «القَبا» لأنه يقلب القاف طاء.. ومن يومها عُرف بإبراهيم طباطبا، وانسحب هذا الاسم بالطبع على ذريته، ومنهم حفيدان مشهوران: أحدهما: ناقد وأديب عربى كبير، اسمه محمد بن أحمد بن إبراهيم، الذى ولد وعاش ومات فى أصبهان. وثانيهما: الرجل الصالح عبد الله بن أحمد بن إبراهيم، الذى فر أجداده من ظلم وعسف الأمويين ثم العباسيين ليستقر أحدهم بمصر، ومن نسله هذا الرجل الصالح المدفون بقرافة الإمام الشافعى، وقد كتب على المشهد الذى دُفن فيه «مشهد آل طباطبا». كما تذكر الدكتوره سعاد ماهر فى كتابها عن المساجد.

ومن عجيب الأمور أن تكون طبيعة الحفيد الذى عاش بمصر تختلف عن طبيعة الجد، ولا يلتقيان إلا فى التقوى والنسب الشريف. حيث كان الحفيد ـ كما ترجم له ابن النحوى ـ رجلاً لَسناً، فصيحاً، حَسَن المحيا، جميل الطلعة، وكانت له رياع وضياع، وكان ذا سعة ومَال.

لكن مع غناه واتساع رزقه كان لا ينام قرير العين إلا إذا اطمأن أنه ليس بالمدينة

جائع أو محتاج، فكان يخرج من بيته فى ظلام الليل حاملاً بنفسه الطعام والشراب والمال، ويجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن جائع أو صاحب حاجه، هذا إلى جانب أنه كان دائم التردد على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، يصلهم بما رزقه الله، متأسياً فى ذلك بأسلوب أجداده من آل البيت، حتى إذا اطمأنَّ قدر استطاعته أنه قام بما يوجبه عليه ضميره عاد إلى بيته وأولاده.

وكان عبد الله بن «طباطبا» إلى جانب بره وإحسانه ـ كان دائم القيام والصيام. ولعلها سُنة استنها من سيرة جده النبى الأعظم ﷺ، التى كان أهل مصر يتبركون بها، وبأى واحد ينتسب إليها، كهذا الرجل الصالح.

وبرغم أن عبد الله بن طباطبا كان صاحب ضياع ورياع، أى أن لديه ما يشغله، فإن ذلك لم يكن لِيَشْغله عن عبادة الله وتبصير خلقه بما فتح الله عليه من علم وفضل، فكان يروى الحديث ويفسره، ويجد جمعاً كبيراً يستمع إليه، ويأخذ بأحكامه، حتى صار بين الناس إماماً، ليس لنَسَبِه الشريف للعلويين فحسب، وإنما لعلمه وفضله أيضاً.

وإلى جانب اهتمام كتب السيرة بنقل ما تيسر من علمه وفضله فقد اهتمت أيضاً بروايات تتصل بحياته وسيرته الذاتية، من هذه الروايات التى سجلها ابن زولاق أن هذا الرجل الصالح عبد الله بن طباطبا رأى فيما يرى النائم أن طاقة فى السماء قدّ فتحت أمامه فصعد إليها ونفذ منها، ليجد طريقاً طويلا يمشى فيه، حتى ينتهى هذا الطريق إلى مكان يتوسطه سرير، تجلس عليه أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها، فأقرأها السلام. فقالت له: من تكون؟ فقال: عبد الله بن أحمد بن إبراهيم. فصاحت أم المؤمنين مستدعية السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما: يا فاطمة، قد جاءَك واحدٌ من أبنائك. فخرجت فاطمة الزهراء رضى الله عنها وقالت: مرحباً بالابن الصالح.. يقول: ثم أقبَلَ بعد ذلك اثنان أعلم أنهما الحسن والحسين رضى الله عنهما، وعلى الفور تقدمتُ لأُقبِّلَ يد أحدهما، وكان جدى الحسن. فقال تقدم إلى عمك، وأشار بيده إلى الإمام الحسين. ولم تمضِ إلا لحظات، من بعدها خرج رجل عليه سكينة ووقار، فقال أحدهما: جدك على بن أبى طالب.. من بعد ذلك رأيت رجلاً جليلاً جميلاً يشع نوراً، ومن حوله نور،

فانكبت على الأرض حتي أقبِّل رجليه. فمنعنى فى رفق قائلا: قم.. ثم أخذ بيدى، وأنزلنى من الطاقة وهو يقول: «هل بلغت الأرض؟ فأقول: لا وظل على سؤاله وأنا على جوابى إلى أن بلغت الأرض. فقمت كالمصروع لا أعقل ولا أعى شيئا».

كذلك يحدثنا ابن النحوى فى كتابه «الرد على أولى الرفض والمكر» عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربط الإمام عبد الله بن طباطبا بكافور الإخشيدى حاكم مصر وقتئذ، فيقول: كان عبد الله بن أحمد يرسل إلى كافور فى كل يوم رغيفين وجامتين من الحلوى، فأنكر ذلك عليه بعض المقربين إلى كافور قائلين كذباً ونفاقاً ورياءً: إن هذا يُنزل من قَدْرِكَ. وهنا طلب كافور من ابن طباطبا أن يكف عن ذلك قائلا: «يا شريف، لا ترسل إلىّ شيئاً بعد اليوم» وامتنع ابن طباطبا بالطبع عن مودة كافور تنفيذاً لطلبه. ولم يكد تمضى بضعة أيام حتى أحس كافور بالضعف والوهن، فأرسل إلى ابن طباطبا يطلب منه أن يمده بما كان يرسله إليه. ففعل قائلا له: إنى ما كنتُ أرسل إليك ما أرسل استخفافاً بك، وإنما لى والدة صالحة تصنع بيدها ما أرسله وتقرأ عليه القرآن. وقال كافور: صدقت يا شريف.

وقصص أخرى وروايات يسجلها المؤرخون والرواة حول هذا الرجل الصالح.. وكلها تؤكد طهارته وشرفه وإيمانه وتقواه.

* * *